تراث مصر الفكري والفلسفي

في عهد الفراعنة

للأستاذ سلامة موسى

obeikandl.com

obeikandl.com

لم يصف برستد نفسه بأنهُ « بشري » ولكن الذي يقرأ مؤلفاته عن مصر يشعر بأن هذا الوصف ينطبق عليهِ . فانهُ من أولئك القائلين بأن الاخلاق أو التمييز بين الخير والشر لم يحدث بتوفيق وإلهام . وانما حدث — مثل اللغة — بجهود بشرية . وكتابه « فجر الضمير » هو عرض وافٍ لهذه الجهود لاولئك المصريين الاولين الذين ابتكروا للعالم حضارته وعلموا الانسان القراءة وفتحوا لهُ بذلك أبواب الثقافة الادبية والدينية والاجتماعية والاخلاقية . ونحن ابناء الفراعنة لم نستبد بهذا التراث كما يشهد بذلك الف دليل . فان حروف الهجاء في انجلترا والموميات المحنطة في أمريكا الجنوبية وتقديس البقرة في الهند وشعائر الاديان المختلفة من التطهر بالماء أو الفردوس إلى الثالوث بل حتى عبارة « ابن الانسان » قد عرفها آباؤنا قبل أربعة آلاف سنة ونشروها في أنحاء العالم مع فن الزراعة الذي أخرجوا بهِ الانسان من حياة الغابة والبداوة الى حياة الحضارة والاجتماع

وبرستد واحد من هؤلاء الرجال الذين يرصدون حياتهم لخدمة العلم على نحو ما يرصد الرهبان حياتهم لخدمة الدين . فان في الدنيا هذه الايام عبادة جديدة تقتضي من صاحبها نسكاً وإنكاراً للنفس وإرصاد الفكر والصحة والمال للبحث عن ماهية الانسان وأصوله في التاريخ القديم وعن مستقبله . وهؤلاء الناسكون الصوفيون يمارسون صوفيتهم في المعمل الكيماوي أو السيكلوجي كما يفعل الكسيس كاريل أو بافلوف ، أو في المعمل الاثري كما كان يفعل برستد

ولا يحسبنَّ أحد أن هذا الكلام يعني المادية أو أنهُ يدعو الى نبذ الدين . فان من لا دين لهُ لاشرف لهُ على حد ما يقول هذا الصوفي العظيم برناردشو . وأما عن المادية فان تاريخ الانسان يصيح باستنكارها . وقد أخرج لنا برستد من « شق الرحا » الذي وجدهُ في احدى مدن الصعيد ما يكشف عن بذرة الاخلاق والاتجاه الذي اتجههُ الانسان الاول لكي يضع أسس الاجتماع

فهذا الشق يعود الى عصر بناء الاهرام أي نحو ٣٣٠٠ سنة قبل الميلاد . وهو أول لوح مكتوب في العالم لم يعثر على اقدم منهُ . وهو يذكر أصل الاشياء ويبين لنا أصل الاخلاق . وهو يذكر القلب بمعنى العقل والفهم . كما لا تزال عليهِ بعض اللغات . وهو يقول بالنص: «كل شيء نشأ وتكوَّن لان القلب (العقل) أرادهُ واللسان نطق بهِ » أي كانت الفكرة ثم كانت الكلمة . وهذه العبارة تدل على أن المصري القديم شعر أن العقل فوق المادة

وشعوره هذا عجيب جدًّا . وهو يدلنا على أن طبيعتنا ليست مادية وان الانسان نفسٌ قبل أن يكون جسماً . وهذا الكاتب لشق الرحا لا يعرف من الخير والشر أو الفضيلة غير هذه الكلمات :

الرجل الذي يعمل ما يحبهُ الناس لهُ الحياة
الرجل الذي يعمل ما يكرههُ الناس لهُ الموت

وهذه هي الاخلاق الاولى كما عرفها الانسان قبل ٥٣٠٠ سنة . وهي تدل على شيئين :
الاول : أن مهمة الاخلاق الاولى هي خدمة الاجتماع بان يعمل الفرد ما تحبهُ الجماعة
والثاني : أن المعنويات فوق الماديات لان القلب (العقل) فوق كل شيء

وهذه البذرة الساذجة للاخلاق والفلسفة ما زالت تتطوَّر حتى وصلت بعد ألفي سنة (١٣٠٠ ق.م) الى فلسفة التوحيد والاخاء البشري عند اخناتون . وقد أصابت في عصر الدولة القديمة ثم عصر الاقطاع من نوبات الارتفاع والانحطاط شيئاً كثيرا . ولكن سلسلة هذا التطور تبدي لنا ناحيتين احداهما ناحية الشعب الذي يقوم أبناءه من الملوك والصعاليك والكتَّاب والصنَّاع بابتكار الاخلاق الجديدة للعصور الجديدة والارتفاع بالانسان الى مدارج سامية من الرقي والدقة في معاني الفضيلة والرذيلة . وفي الناحية الاخرى نجد الكهنة الذين يحيلون الاخلاق الى شعائر جامدة لا تقبل التنقيح لانها مقدسة . فالابتكار يأتي من الشعب والجمود من رجال الدين

***

ولكن شق الرحا ليس أول ما كتب عن الاخلاق . وانما هو أول ما وجد في عصرنا من النقوش القديمة لا يعرف أقدم منهُ . ولكن عصر الاهرام حافل بالنقوش العديدة التي تعطينا صورة من الاخلاق الاولى كما فهمها الانسان لاول اصطدامه بحقائق الدنيا وبالمسائل الاجتماعية

فمن ذلك ان المصري الاول لم يستطع أن يروِّض نفسه على السكون الى الموت . فهو لا يذكره باسمه إلاَّ حين يدعو على عدو . اما حين يذكر حبيباً فانهُ يؤكد انهُ لم يمت وانهُ سيعيش وسيعيش . وهذا يقال مع المومياء المحنطة . وهذا الخوف من الموت هو الذي ألهم بناء الاهرام وألهم التحنيط وألهم الفردوس المصري القديم . فان الميت لم يمت . بل هو يعيش في الفردوس . هذا الفردوس الذي نرى اوصافه في كثير من الفراديس التالية

ولا يمكن أن يقال إننا نحن نسكن إلى الموت ونسلم بهِ . فان الرغبة الحادة التي تجعلنا أحياناً نعقد المجالس « لمناجاة الأرواح » تدل على أننا ما زلنا عاجزين عن التسليم بالموت . وان اختلافنا من المصري القديم الذي كان يرفض أن يلفظ بلفظة الموت وكان يبني الاهرام قصد الخلود انما هو اختلاف في الدرجة فقط

٢ — وفي عصر الاهرام هذا نجد هذه العبارة في التزكية « محبوب من الاب ممدوح من الأُم يحبه اخوته » وهذا يدلنا على أن الأُسرة كانت أساس الحب الاجتماعي . وهي لا تزال كذلك . واشتقاق الرحمة من الرحم في اللغة العربية يدل على أن هذه الفضيلة نشأت أولاً لخدمة ذوي

الارحام أي الاقارب . وكذلك كان الشأن عند المصريين القدماء . بل السيكلوجية الحديثة تدل على أن حب الطفل لأسرته هو النواة لحبه للهيئة الاجتماعية . واتفاق السيكلوجية والمصرولوجية برهان على عظم المكانة التي تحتلها الاسرة من الاجتماع

٣ — نجد في عصر الاهرام حِكَماً بتاح حوتب تدعو الى النجاح الشخصي ولكن مع الاستقامة . كما نجد ان الناس يحتاجون إلى التزكية بأعمالهم لكي ينالوا السعادة الابدية . بل الآلهة المصرية نفسها كانت تحتاج الى التزكية . وهناك ما يسمى « نصوص الاهرام » وهي النقوش التي وجدت في قبر ببي من ملوك الأسرة الخامسة والسادسة . وفي هذه النصوص نجد هذه الكلمات

يفعل الملك ببي شراً . وانها لكلمة كبيرة في عينك يا رع »

فنفهم من هذه الكلمة أن الملك كان في حاجة لان يزكي نفسه أمام ربه ويثبت انهُ كان صالحاً لا يظلم الناس . ويمكن ان نستخلص من عصر الاهرام أربعة مبادىء في الاخلاق الاولى التي عمت مصر قبل ٥٢٠٠ سنة تقريباً :

١ — المبدأ الاول هو الخوف من الموت وأثر ذلك في ايجاد الكهانة ومحاولة الخلود بالتحنيط والاهرام . وقد كان لهذا الخوف اثره الحسن في انبعاث المصريين الى السياحة لجلب مواد التحنيط والدفن فانتشرت بذلك الحضارة الاولى كما عرفت مبادىء الصناعات والعلوم . ولكن كان لهُ أثر سيء هو سلطان الكهنة وإرصاد الجهود الكبيرة لبناء الاهرام وتوجيه العقول إلى عالم آخر

٢ — المبدأ الثاني اننا نعرف من قصة شق الرحا ان الفضيلة كما فهمها المصري الاول هي ما أحبهُ الناس . والعكس بالعكس

٣ — والمبدأ الثالث ان الاسرة هي أساس الاخلاق للاجتماع

٤ — والمبدأ الرابع هو أن كل انسان مسئول وأنهُ محتاج لهذا السبب الى التزكية ولو كان ملكاً

كل هذا نراه واضحاً فيما بين سنة ٣٣٠٠ ق . م الى سنة ٢٥٠٠ ق . م

ولكننا بعد ذلك نبدأ بالشعور بأن الشك أخذ يتسرب الى العقائد . ومنذ حوالي سنة ٢٥٠٠ نجد المصريين ينظرون بعين الشك إلى قيمة الاهرام في تخليد الميت . ولا بدّ ان كثيراً من هذه الاهرام التي كانت تعد بالعشرات قد بلي وتفتت كما تهدمت المعابد التي أقيمت بجوارها فتقلقلت العقائد الدينية وأصبح الناس يتساءلون — كما نتساءل — من هو الرجل الفاضل ؟ هل هو المصلي المتعبد أم هو الرجل العادل الذي لا يظلم الناس ؟ ونجد أحد الفراعنة ينصح لابنه مريك رع (٢٥٠٠ ق . م .) فيقول لهُ « ان فضيلة الرجل المستقيم نجد من القبول اكثر مما يجده ثور الضحية الذي يقدمه الرجل السيء » وبكلمة أخرى الدين المعاملة . ولكن الشك في ثور الضحية هو شك في الدين

وفى هذا الوقت أيضاً نجد أن الله يوصف بأنهُ خفيٌّ يعرف كل شيء . وفي هذا الوصف ما يعني ان لهَ رقابة على العالم. وهذا هو البذرة الاولى للتوحيد . والمصري القديم الذي يؤمن هذا الايمان يعدُّ بلا شك زنديقاً من ناحية ايمانه بالآلهة الاخرى

وحوالي سنة ٢١٠٠ ق . م نجد الشك يزداد . فان الثقة العمياء التي دفعت الملك خوفو الى ان يعيء قوات الدولة لبناء الهرم الكبير لكي يعيش في العالم الآخر الى الابد قد زالت وجاء مكانها روح جديد يشبه روح عمر الخيام . فاننا نسمع شاعراً مصرياً ينشد « ليس أحد يأخذ معهُ أمواله وليس أحد من الموتى يعود » وهذا القائل كان يعرف الاهرام وكان بعضها قد مضى عليه ١٢٠٠ سنة . فكان ينظر اليها ويقول : « ما الفائدة ؟ . لقد ماتوا وكل هذا عبث ! »

ويقول هذا الشاعر في قبر الملك انتيف من الاسرة الحادية عشرة (٢١٠٠ ق.م) :

«لا يعود أحد من هناك (من الآخرة)
لكي ينبئنا عما جرى لهم وعن الحظ الذي لاقوه
حتى ترضى نفوسنا الى ان نرحل نحن أيضاً الى المكان الذي ذهبوا اليه»

ثم يحضُّ على الاستمتاع بالدنيا لان الآخرة لا تعرف فيقول :

« أشعِرْ قلبك الشجاعة وانسَ الموت
وامتلىء سروراً واتبع رغائبك ما دمت حيًّا
ضع المرَّ على رأسك (تطيَّب) والبس الاقمشة من الكتان الحسن المهيأ بألوان الترف »

وزد مسراتك ولا تجعل قلبك يذبل . واتبع رغائبك وما تحب ، ولتنتظم اعمالك على الارض كما يشتهي قلبك حتى يأتي اليك يوم الرثاء حين لا يسمع القلب الساكت هذا الرثاء »

***

هذا التفكير الجريء الفاجر نجد منهُ كثيراً بعد سقوط الدولة القديمة. فان الاستقرار الذي بنيت فيه الاهرام والذي بقي نحو ألف سنة قد تقلقل وجاء عصر الفوضى والاختلاط وحكم الامراء المستقلين وتزعزع السلطان سواء أكان في الدين أم في الحكومة . وهذا العصر الذي تخسر فيه النظام يكسب فيه الذهن ، لان الانسان في مثل هذه الظروف يتساءل : ما السبب لهذا الفساد؟ ولماذا كان أسلافنا صالحين ؟ ولماذا نحن غير صالحين ؟ وماذا ينقصنا ؟ وما هو مستقبلنا ؟

وهذا التفكير يكثر في الازمات . ولا بد ان أسلافنا قاسوا في هذا العصر ألواناً من القحط والحرمان للفوضى السائدة . وعندئذ نجد أنهم يفكرون في المنقذ الذي سوف يأتي فيعم بين

الناس الرخاء والعدل ويخفض الظالم ويرفع المظلوم . وقد أدّى بهم هذا التفكير الى فكرة أصبحت تقليدية في جميع الأديان تقريباً هي ان «المنقذ» في شخص ملك أو نبي سيأتي وينقذ الناس من جميع الشرور التي حاقت بهم . وهذا المنقذ قد وصفوه بهذا الوصف العجيب « ابن الانسان » ولا يمكن أن يفسر هذا الحلم الذي حلمه آباؤنا قبل ٤٠٠٠ سنة الاّ انه ثمرة الحرمان والقحط وتفشي الفوضى والعجز عن علاجها

كلنا يعرف ان التفكير الديني انتهى ايام اخناتون الى التوحيد الصريح وهدم الاصنام واستنكار تعدُّد الآلهة ومكافحة سلطان الكهنة . ولذلك يحسن بنا ان نتتبع الدرجات التي انتهت الى هذه النتيجة

ففي أيام بناة الأهرام كانت الدولة مستقرة والنظام سائداً والمعابد تبنى وترمم بكل عناية في كل مكان . والايمان بالخلود بعد الموت عظيماً جداً تؤيده أهرام ما زالت لايامنا قائمة . وفي مثل هذه الظروف لا يمكن أحد أن يكون حرّاً في تفكيره وهو لا يستطيع ذلك . ثم يجب ان نذكر ان الآلهة كانت آلهة مصر فقط

فلما كثرت الاهرام والمعابد والاضرحة أصبح من المحال ترميمها وتجديدها كلها فصارت تبلى وتهدم وتترك على هذه الحال فيراها المصري القديم فيفكر في قيمة الخلود المزعوم والقوة الالهية المفروضة . ويشك فيهما ثم يؤمن بأن الموت لاغش فيه ولا تخالطهُ حياة فيقول كما قال هذا الشاعر على جدران قبر إنتيف : « أستمتع بالدنيا »

ثم يأتي عصر الفوضى والقحط وقطع الطرق فيحلم آباؤنا عن المنقذ « ابن الانسان » الذي يعمم العدل . وكأنهم يئسوا من آلهتهم

ثم يستتب النظام من جديد في الدولة الجديدة . ولكنه ليس كنظام الدول القديمة جاء على فطرة وسذاجة وخوف من الموت . وإنما هو نظام يستند الى أفكار تختمرة متصارعة قد اختلط فيها الفكر بالايمان . والدين ظاهرة اجتماعية لا يختلف عن أي ظاهرة أخرى . ولذلك نجد تحطمس الثالث حوالي سنة ١٥٠٠ ق . م . ينشيء أمبراطورية فيحتاج الى أن يجعل آلهته امبراطورية ايضاً فيصف رع بأنه يرى الدنيا جميعها في كل وقت . وهذا هو المعقول لانهُ اذا كان فرعون قد ملك الدنيا فيجب ان يملك آلهة الدنيا ايضاً . ومادام إلـه رع يملك الدنيا فما قيمة الآلهة الاخرى؟ اذ ماذا يملك الى جانبه ؟ وهذا المنطق يؤدي الى التوحيد

وبكلمة أخرى نقول ان التوسع الامبراطوري الذي قام بهِ تحطمس الثالث هو الذي هيّأ الافكار للتوحيد . لان إلـه مصر لم يعد خاصًّا بمصر بل صار إلهاً للامبراطورية : للدنيا

فاذا وصلنا الى اخناتون نجد أن مصر قد مضى عليها ٢٠٠ سنة وهي تتولى الحكم في امبراطورية

واسعة فيتسم التفكير فيها بالسمة العالمية . ويدعو اخناتون دعوة صريحة الى التوحيد . وهو يجد في رع أليق الآلهة لان يتبوأ مكان الإله الواحد. وهو يسميه اتون من اسمائه القديمة ويدعو نفسه اخناتون أي الراضي بأتون

وقيمة التوحيد كبيرة جدًّا لانها تعني الاخاء البشري وان الناس كلهم سواء أمام الله اذ هي الديموقراطية الدينية للبشر . فليس للشعب ان يقول هذا ربي وليس ربكم. بل الكل سواء

ولكن التوحيد الذي دعا اليه اخناتون في مصر أخمده الكهنة وعادوا الى عبادة الاصنام. ولكن دعاة اخناتون نجحوا في نشر التوحيد في آسيا

هذه هي قصة الفكر المصري الى عهد اخناتون (١٣٠٠ ق . م) وما بعد اخناتون ليس له قيمة كبيرة. وهذه القصة إن دلت على شيء فهي تدل على ان الشعب هو الذي يفكر وهو الذي يبتكر المذاهب والاديان الصالحة في حين ان الكهنة يحيدون ويقاومون كل تطوّر

ان كثيرا من الامثال والحكم التي نعتقد ان العرب أو الاغريق قد اخترعوها انما هي من مخترعات مصر . مثال ذلك المثل القائل « القتل أنفى للقتل » فانهُ مثل مصري قديم . وكذلك المقابلة بين القلم والسيف وان الاول أعظم من الثاني هو مثل مصري قديم . وما يسمى الآن أمثال سليمان التي بالتوراة انما هي أمثال امينوموب المصري . وكثير من الادب الاغريقي في الياذة هوميروس يعود الى قصص مصرية . والمصريون هم أول أمة عرفت أن الدماغ هو مركز العقل وانه هو الذي يسيطر على حركات الجسم